شرح منظومة
وصف العالم الأبيِّ
والاعتزاز بالعلم وسمو الهمة

للإمام الجرجاني رحمه الله تعالى

شرح الشيخ:

أبي اليمان عدنان بن حسين المصقري

مكتبة دار الحديث
بدار السلام/ تنزانيا

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَة

الطَّبعَةُ الأُولَى

١٤٣٩ / ٢٠١٨

مكتبة دار الحديث

تنزانيا

مسجد الألباني
دار السلام
تنزانيا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

منظومة وصف العالم الأبيِّ والاعتزاز بالعلم وسموّ الهمة

١. يَقُولُونَ لِيْ فِيْكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا
رَأَوْا رَجُلاً عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا

٢. أَرَى النَّاسَ مَن دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهمْ
وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا

٣. وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ العِلْمِ إِنْ كنت كُلَّمَا
بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِيَ سُلَّمَا

٤. وما زلتُ مُنحازًا بعرضي جانبا
عن الذل أعتَدُّ الصيانةَ مَغنَمَا

٥. إذا قِيلَ: هذا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى
وَلكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا

٦. أُنَزِّهُهَا عَنْ بَعْضِ مَا لَا يُشِينُهَا
مخافةَ أقوالِ العِدا فيمَ أو لِمَا؟

٧. فأُصبحُ عن عيْب اللئيم مُسَلَّمًا
وقد رحتُ في نفسِ الكريم معظَّما

٨. وإنِّي إذا ما فاتني الأمرُ لمْ أبِتْ

أُقَلِّـــــبُ كفِّـــــي إِثْـــــرَهُ مُتَنَـــــدِّمَا

٩. وَلَكِنَّـــهُ إنْ جَـــاءَ عَفْـــوًا قَبِلْتُـــهُ

وَإِنْ مَـــالَ لَـــمْ أُتْبِعْـــهُ هَـــلَّا وَلَيْتَـــمَا

١٠. وأقبض خَطوْي عن حظوظٍ كثيرةٍ

إِذَا لَمْ أَنَلْهَـــا وَافِـــرَ العِـــرْض مُكْرَمـــا

١١. وأُكـرِم نفـسي أن أُضـاحِك عابسًـا

وأن أَتلقَّـــــى بالمـــــديح مُـــــذَمَّما

١٢. وكـم طالـبٍ رِقِّـي بـنُعْماه لم يصـل

إليـــــه وإن كـــــان الـــــرئيسَ المعَظِّـــــما

١٣. وكـم نعمـةٍ كانـت عـلى الحُـر نقمـةً

وكـــــم مغـــــنمٍ يعتَـــــدُّه الحـــــرُّ مَغرمـــا

١٤. ولم أبتـذِل في خدمـة العلـم مهجتـي

لأخـــدِم مـــن لاقيـــت لكـــن لأُخْـــدَما

١٥. أأشـقى بـه غَرْسًـا وأجنيـه ذِلـةً

إذا فاتبـــاعُ الجهـــلِ قـــد كـــان أحزَمـــا

١٦. وإني لـراضٍ عـن فتًـى متعفـفٍ

يـــروح ويغـــدو لـــيس يملـــك درهمًـــا

١٧. يبيتُ يراعِـي النـجمَ مـن سـوءِ حالِـه

ويصـــبحُ طَلْقـــا ضـــاحكا متبســـما

١٨. ولا يسأل المُثْرين ما بأكفِّهم
ولو ماتَ جُوعاً عِفَّةً وتكرُّما

١٩. فإن قلت: «زَندُ العِلمِ كابٍ»، فإنما
كبا حين لم نَحرُسْ حِماهُ وأظلَما

٢٠. ولو أنّ أهلَ العلمِ صانوه صانهم
ولو عظَّموه في النفوسِ لعظما

٢١. ولكن أهانوهُ فهانوا ودنَّسوا
مُحَيَّاهُ بالأطماع حتى تجَهَّما

٢٢. وما كُل بَرْقٍ لاحَ لي يستفِزني
ولا كل مَن لاقَيتُ أرضاه مُنعِما

٢٣. ولكن إذا ما اضطرني الضُّر لم أبت
أقلبُ فكري مُنْجِدًا ثم مُتْهِما

٢٤. إلى أن أرى ما لا أَغصُّ بذِكْره
إذا قلتُ قد أسْدى إليَّ وأنعَما

◈◈◈◈◈

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِمة الشَارح

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد:

هذه الأبيات الطيبة المباركة للإمام **الجرجاني أبي الحسن علي بن عبد العزيز** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في:

«وصف العالم الأبيّ والاعتزاز بالعلم وسمو الهمة».

فهي أبيات طيبة، يحرص طلبة العلم والعلماء على حفظها وفهمها، وما أحوج كل طالب علم وداعية إلى الله تعالى أن يفهمها ويحفظها وأن يعمل بمقتضاها، إذ أنها توافق الأدلة وتدل على عزة المسلم؛ ومن الأدلة على ذلك:

- قال التاج السبكي رحمه الله تعالى، بعد أن أورد هذه القصيدة الفائقة العصماء في ترجمة الجرجاني: «لله هذا الشعر ما أبلغه وأصنعه! وما أعلى على هام الجوزاء موضعه! وما أنفعه لو سمعه من سمعه! وهكذا فيكن - وإلا فلا - أدب كل فقيه، ولمثل هذا الناظم يحسن النظم الذي لا نظير له ولا شبيه، وعن هذا ينطق المنصف بعظيم الثناء على ذهنه الخالص لا بالتمويه».

فيا ليت كل عالم وطالب علم ينقش هذه الأبيات في صدر مجلسه، وعلى صفحة قلبه، ويجعلها دستوره في حياته، وإمامه في خلائقه!

ورحم الله الإمام الجرجاني، ونفعنا الله بنظمه ونثره، وعلمه وأدبه... آمين.

-أقول وبالله أستعين:

الجرجاني هو **العلامة القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني**، الفقيه الشافعي الأديب الشاعر المحسن، قاضي قضاة الري، والمولود في حجود سنة ٣٢٥، والمتوفى سنة ٣٩٢ رحمه الله.

- قال فيه الثعالبي واصفا كثرة تطوافه وتقلبه في البلدان لتحصيل العلم: «وكان في صباه خَلِفَ الخَضِر (يعني خليفة الخضر) في قطع الأرض وتدويخ بلاد العراق والشام وغيرهما، واقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به في العلوم عَلَما، وفي الكمال عالما، فهو حسنة جرجان، وفرد الزمان، ونادرة الفلك، وإنسان حدقة العِلْم، ودُرّةُ تاج الأدب، وفارس عسكر الشعر، يجمع خط ابن مقلة، إلى نثر الجاحظ، ونظم البحتري، وينظم عقد الإتقان والإحسان في كل ما يتعاطاه».

وقد استعمل أبو الحسن الجرجاني كل ما أوتيه من فضل وعلم وأدب وحسن نظم مع ما أوتيه من مروءة طالب العلم وتعففه لينظم هذه القصيدة التي يصف فيها ما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم من الاعتزاز بالعلم، وسمو الهمة، والترفع عن الدنايا والصغائر، وكل ما يشين من الأفعال والأعمال والخلائق؛ ليسمو به علمه إلى أعلى المقامات، وينبل قدره، وينتفع الناس به في الحياة وبعد الممات.

وفي الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: «**مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ**

الله، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»؛ [«صحيح البخاري» (١٤٦٩) - واللفظ له -، «صحيح مسلم» (١٠٥٣)].

وكذلك حديث عُرْوَة بْن الزُّبَيْر، وَسَعِيد بْن الْمُسَيِّب، أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ، فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ، فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ: «**يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى**»، قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لاَ أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى العَطَاءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ، أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تُوُفِّيَ؛ [«صحيح البخاري» (١٤٧٢) - واللفظ له -، «صحيح مسلم» (١٠٣٥)].

وجاء عَنْ ثَوْبَانَ - وَكَانَ ثَوْبَانُ مَوْلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ يَكْفُلُ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟**»، فَقَالَ ثَوْبَانُ: أَنَا، فَكَانَ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا؛ [«سنن أبي داود» (١٦٤٣) - واللفظ له -، «مسند أحمد» (٢٢٣٧٤)، وصححه والعلامة الألباني في «سنن أبي داود»، والإمام الوادعي رحمه الله في «الصحيح المسند»].

والأحاديث كثيرة في ذم السؤال والأمر بالعفة والعزة، ولذا قال أبو سفيان لهرقل لما سأله: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قال: «يَقُولُ: **اعْبُدُوا الله وَحْدَهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا**

مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّدْقِ وَالعَفَافِ وَالصِّلَةِ» [«صحيح البخاري» (٧)].

أي يأمرنا بالعفة، فالعفاف منسوب لهذا الدين.

وهكذا كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يبايعون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ **«ألا يسألوا النَّاسَ شَيْئًا»** كما في حديث عوف، [«صحيح مسلم» (١٠٤٣)].

وفي حديث قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلَالِيِّ، قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: **«أَقِمْ حَتَّى تَأْتِينَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا»**، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: **«يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ رَجُلٍ، تَحَمَّلَ حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا»**؛ [«صحيح مسلم» (١٠٤٤)].

فهذا شرح يسير على هذه الأبيات الجميلة نسأل الله تعالى المعونة.

◈◈◈◈◈

شرح المنظومة

● يقول الجرجاني رحمه الله:

١. يَقُولُونَ لِيْ فِيْكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا
رَأَوْا رَجُلاً عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا

٢. أَرَى النَّاسَ مَن دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهُمْ
وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا

٣. وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ العِلْمِ إِنْ كنت كُلَّمَا
بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِيَ سُلَّمَا

● الشرح:

«يقولون لي»: أي يقول الناس عني

«فيك انقباض»: أي أنك لا تسألنا وتذل لنا ولا تأتي إلى بيوتنا ولا تخالطنا كثيرا.

«وإنما» الحقيقة أنهم، «رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما»: أي لا يريد موقف الذل.

«أحجما»: أي امتنع عن موقف الذل.

«أرى الناس» في حقيقتهم، «من داناهم» ومن سألهم ومن تدنى لهم، «هان عندهم» وصار عندهم هينا.

«ومن أكرمته عزة النفس أكرما»: أي من كان عزيز النفس أكرمه الناس، وعزة النفس ليس معناها الكبر ولا التجبر، وإنما معناها البعد عما يشين الإنسان، وعما يضره.

«ومن أكرمته عزة النفس»: أي أكرمته عزة النفس عن سؤال الناس «أكرما»، مع أن المؤمن متواضع إذا دُعِيَ أجاب؛ كما جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ**» [«صحيح البخاري» (٥١٧٨)].

«ولم أقض حق العلم إن كنت كلما ...»: أي: لم أوف حق العلم، ولم أقض حقه.

«إن كنت كلما بدا طمع»: أي إن بدا لي طمع، وبدا لي باب من أبواب الدنيا.

«صيرته لي سلما»: أي أتسلق عليه أو به إلى مطمعي.

● قال رحمه الله:

٤. ومـــا زلـــتُ مُنحـــازًا بعـــرضي جانبـــا

عـــــن الـــــذل أعتَـــــدُّ الصـــــيانةَ مَغـــــنَما

● الشرح:

«ومازلت منحازا بـــعرضي جانبـــا»: أي مبتعدا بعرضي، والعِرض هو موضع القدح والذم في الإنسان.

«جانبا»: أي مجانبا للذل وبعيدا عن الهيانة.

«أعتد الصيانة مغنما»: أي أعدُّ الصيانة، أي صيانة العلم مغنما ونعمة ومكسبا عظيما.

* وصيانة العلم، تكون بأمور منها:

- بُعد طالب العلم والعالم عن مواقف الذل، ومواقف الشين، ومواقف القدح، وعن الاختلاط بالحرام، والقرب من الشبهات، وعن الأفعال التي لا تليق.

- ومن صيانة العلم ألا يسأل الإنسان الناس شيئا لا بالقول ولا بالفعل كاختيار الملابس الرثة لاستعطاف رحمة الناس، ولا بالتصريح ولا بالتلميح.

- ومن صيانة العلم ألا يستخدم الإنسان الناس لحاجته ولو كانوا يحبون ذلك.

- ومن صيانة العلم ألا يمازح الإنسان الناس كثيرا - فكثرة المزاح ليست من الحزم -، وألا يلعب معهم الألعاب الذميمة.

- ومن صيانة العلم، ألا يدخل في شؤون الناس.

- ومن صيانة العلم، ألا يتوصل بعلمه إلى دنيا.

- ومن صيانة العلم، ألا يسأل الناس أن يخفضوا له الأسعار من أجل علمه، يقول: «أنا عالم، وأنا شيخ، وأنا إمام مسجد، فأنزل لي هذه القيمة».

وهذا كله من صيانة العلم.

● قال رحمه الله:

٥. إذا قِيـلَ: هـذا مَنْهَـلٌ قُلْـتُ قَـدْ أَرَى
وَلكِـنَّ نَفْـسَ الحُـرِّ تَحْتَمِـلُ الظَّـمَا

٦. أُنَزِّهُهَـا عَـنْ بَعْـضِ مَـا لَا يُشِـينُهَا
مخافـةَ أقـوالِ العِـدا فـيمَ أو لِـمَا؟

● الشرح:

«إذا قيل: هذا منهل»: أي إذا قيل هذا باب من أبواب الدنيا، وهذا مشرب، وهذا مأكل؛ والمنهل في اللغة هو: المشرب، منهل الإبل: ما تشرب منه.

«قلت: قد أرى»: أي أنا أرى أنه منهل، وأن الناس يشربون منه.

«ولكن نفس الحر تحتمل الظما»: أي تتحمل أن تجلس جائعة ظامئة، بعيدة عن الماء، لأني لا أنزل نفسي منزلة العبيد.

ولكن نفس الحر تحتمل الظمأ. أي بل أجعل نفسي حرة،

«أنزهها عن بعض ما لا يشينها»: أي: أنزهها عن بعض الأعمال، التي هي في الحقيقة ليست حراما، بل هي جائزة.

«مخافة أقوال العدا: فيم أو لما»: أي أخاف من أقوال أعدائي: فيم عمل هذا؟ ولما عمل هذا العمل؟ لأن الأعداء قد يتكلمون عليك وأنت تعمل شيئا مباحا: فيم أو لما؟

● قال رحمه الله:

٧. فأُصبحُ عن عيْب اللئيم مُسَلَّما
وقد رحتُ في نفسِ الكريم معظَّما

٨. وإنِّي إذا ما فاتني الأمرُ لمْ أبِتْ
أُقَلِّبُ كفِّي إِثْرَهُ مُتَنَدِّمَا

● الشرح:

«فأصبح»: أي أصبح مع عزتي وصيانتي لعلمي، «عن عيب اللئيم مسلما»، أي أسلم، لا يعيبني اللئيم صاحب اللؤم.

«وقد رحت في نفس الكريم معظما»: أي وقد رحت في نفس الكرماء عظيما، لأني أبتعد عن ما لا يليق بي، وهذا لا يعني أنك تعمل الأعمال من أجل الناس أن يمدحوك ولا يذموك، ولكن هذا باب من أبواب صيانة العلم، والتنزه عن ما يضر عند الله، وعند الناس.

ففي حديث عَبْد الله بْن الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ الزُّبَيْدِيَّ: أَنَّهُ، مَرَّ وَصَاحِبٌ لَهُ بِأَيْمَنَ وَفِتيَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ حَلُّوا أُزُرَهُمْ، فَجَعَلُوهَا مَخَارِيقَ يَجْتَلِدُونَ بِهَا، وَهُمْ عُرَاةٌ، قَالَ عَبْدُ الله: فَلَمَّا مَرَرْنَا بِهِمْ قَالُوا: إِنَّ هَؤُلَاءِ قِسِّيسُونَ فَدَعُوهُمْ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ تَبَدَّدُوا، فَرَجَعَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مُغْضَبًا، حَتَّى دَخَلَ وَكُنْتُ أَنَا وَرَاءَ الْحُجْرَةِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ الله، لَا مِنَ الله اسْتَحْيَوْا، وَلَا مِنْ رَسُولِهِ اسْتَتَرُوا**»، وَأُمُّ أَيْمَنَ عِنْدَهُ تَقُولُ:

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ يَا رَسُولَ الله، قَالَ عَبْدُ الله: «فَبِلَأْيٍ مَا اسْتَغْفَرَ لَهُمْ»؛ [«مسند أحمد» (١٧٧١١)، وصححه العلامة الألباني في «الصحيحة»، والإمام الوادعي].

أي أنهم لم يستحوا من الله تعالى ولا من خلقه.

تَنْبِيهٌ: هذا ولتعلم أن الناس لن يتركوك، لابد أن يعيبوك، ويتكلموا فيك، إذا كنت على الحق، فالذي يريد أن الناس لا يتكلموا فيه أبدا، ولا يطعنوا فيه، هذا ليس بصحيح، لابد إذا كنت على الحق أن يتكلم الناس فيك وأن يطعنوا فيك وأن يبحثوا حتى عن الكذب؛ فرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قالوا فيه: (ساحر) ، وهو ليس بساحر، و(كاهن)، وهو ليس بكاهن، و(شاعر)، وليس بشاعر، قالوا فيه: (مذمم)؛ وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قالوا فيه أشياء، وليست بصحيحة.

«وإني إذا ما فاتني الأمر لم أبت...»: أي وإني إذا ما فاتني أمر من أمور الدنيا، مأكل أو مشرب أو مطمع.

«لم أبت أقلب كفي»، أي: أندم، «إثره متندما»، وتقليب الكف عبارة عن الندم كما في قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢].

وفي القرآن لا نقول: عبارة، نقول: حقيقة، لكن في اللغة هو تعبير عن التندم لأن المتندم غالبًا يقلب كفيه.

● قال رحمه الله:

٩. وَلَكِنَّـــهُ إِنْ جَـــاءَ عَفْـــوًا قَبِلْتُـــهُ

وَإِنْ مَـــالَ لَـــمْ أُتْبِعْـــهُ هَـــلَّا وَلَيْتَـــمَا

١٠. وأقـبض خَطـوْي عـن حظـوظٍ كثـيرةٍ

إِذَا لَمْ أَنَلْهَـــا وَافِـــرَ العِـــرْض مُكْرَمـــا

● الشرح:

«ولكنه إن جاء عفوا قبلته»: معنى «عفوا»: أي بدون تكلف ولا سؤال، ولا ذهاب وراءه، أي إن جاء أي شيء من حطام الدنيا عفوا، «قبلته»: وهذا عملا بحديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يُعْطِينِي العَطَاءَ، فَأَقُولُ: أَعْطِهِ، يَا رَسُولَ الله، أَفْقَرَ إِلَيْهِ مِنِّي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**خُذْهُ فَتَمَوَّلْهُ أَوْ تَصَدَّقْ بِهِ، وَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ فَخُذْهُ، وَمَا لَا، فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ**»؛ [«صحيح البخاري» (١٤٧٣) - واللفظ له -، «صحيح مسلم» (١٠٤٥)].

أي إذا لم يأتك، فلا تتبعه نفسك.

«وإن مال لم أتبعه هلا وليتما»، ومعنى «مال» أي: ذهب الطمع وذهب المال عني، «لم أتبعه» بقولي: «هلا وليتما»: أي هلا عملت كذا، وليت أني عملت كذا حتى أناله -أي هذا المال -.

«وأقبض خطوي عن حضوظ كثيرة...»: أي أمسك خطاي، لا أمشي عن «حظوظ كثيرة»: أي عن حظوظ، عن حظ كثير، وأنا أعلم أني لو أمشي سأكسب وسأنال.

«إذا لم أنلها وافر العرض مكرما»: كل ذلك من أجل عرضي أن أكون كريما إذا لم أنلها، «وافر العرض مكرما»: أي جاءت المكرمة ونلتها، وأنا وافر العرض مكرما، فحيا هلا بها.

وهذا يدل على أن الإنسان له نفس، وهو يحتاج إلى المال ولاسيما طالب العلم، والعالم يحتاج إلى المال، ويحتاج إلى ما يتقوى به على طاعة الله تعالى، لكن لا يمكن أن يهين نفسه، من أجل أن يسأل أو يتدنى.

● قال رحمه الله:

١١. وأُكـرِم نفـسي أن أُضـاحِك عابسًـا
وأن أَتلقَّـــــى بالمـــــديح مُـــــذَمَّما

١٢. وكـم طالـبٍ رِقِّـي بـنُعْماه لم يصـل
إليـــــه وإن كـــــان الـــــرئيسَ المعَظِّـــــما

● الشرح:

«وأكرم نفسي أن أضاحك عابسًا»: أي أن أضحك مع واحد ما يريد أن يضحك معي، وأتكلم مع واحد ما يريد أن يتكلم معي، وهكذا أنت من رأيته متكبرا عليك فأعرض عنه، وهذا باب من أبواب صيانة العلم أيضا، كرامة النفس عن مضاحكة المتكبرين.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [النجم: ٣٠].

وليس معنى هذا أنك تترك الدعوة إلى الله تعالى، فأنت تدعو الناس جميعا، وإن أعرضوا.

«وأن أتلقى بالمديح مذمما»: أي وأن أمدح من هو مذمم، أنا لا أمدح أحدا وهو مذموم أو أحدا لا يستحق المدح.

«وكم طالبٍ رِقِّي بنعماه لم يصل»: أي وكم طالب، كم من إنسان، طَلَبَ رِقِّي، وطلب أن أكون رقيقًا وعَبْدًا له، طلب أن أكون سائلا له، عبدا له.

«لم يصل إليه»: أي لم يصل إلى هذا المطلب وهو رِقِّي، يريد أن يجعلني رقيقا وأنا حر.

«وإن كان الرئيس المعظما»: أي وإن كان رئيسًا مُعَظَّمًا لا يمكن أن يصل إلى رِقِّي وإلى أن يستعبدني.

● قال رحمه الله:

١٣. وكم نعمةٍ كانت على الحُر نقمةً
وكم مغنمٍ يعتَدُّه الحرُّ مَغرما

١٤. ولم أبتذِل في خدمة العلم مهجتي
لأخدِم من لاقيت لكن لأُخْدَما

●الشرح:

«وكم نعمة كانت على الحرّ نقمة»: أي فكم من نعمة في الحقيقة هي نقمة على صاحبها، فأنا لا أبحث عن النعمة بسبب ذل نفسي.

«وكم مغنم يعتده الحر مغرما»: أي وكم من مغنم تغنمه، والحر يعدُّ هذا المغنم مغرما، لأنه سيتعبه في الدنيا، ويحاسب عليه يوم القيامة؛ «مغرما»: أي يغرم بسببه ويتعب.

«ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي»: أي لم أبتذل مهجتي في خدمة العلم، وفي سبب العلم، لأن طالب العلم يحتاج أن يذل نفسه للعلم، ويذل نفسه للعلماء، فيتعب تعبا كثيرا، ويجلس بين يدي أهل العلم، ويُجيع نفسه ويُتعب نفسه، وربما يحتاج أن يذهب يكسب بعض المال من أجل أن يأكل ويأكل أولاده وليس عنده وقت، يريد أن يطلب العلم، وهو يستطيع أن يذهب ويشتغل، لكن من أجل العلم يُتعِب نفسه.

«لأخدِم من لاقيت»: أي أني ما أتعبت نفسي في طلب العلم، من أجل أن أخدم الناس، وأسأل الناس.

«لكن لأُخدَما»: وليس معنى أن الإنسان يريد بطلب العلم أن يُخدَم، وأن يكون مخدوما، منعوما عليه، لكن هذا من باب عزة النفس، الأولى أن الناس يخدمون العالم، لا أنه يخدمهم.

● قال رحمه الله:

١٥. أأشـــقى بـــه غَرْسًـــا وأجنيـــه ذِلـــةً
إذا فاتبـــاعُ الجهـــلِ قـــد كـــان أحزَمـــا

١٦. وإني لـــراضٍ عـــن فتًـــى متعفـــفٍ
يـــروح ويغـــدو لـــيس يملـــك درهمًـــا

١٧. يبيتُ يراعِـي الـنجمَ مـن سـوءِ حالِـه
ويصـــبحُ طَلْقـــا ضـــاحكا متبســـما

● الشرح:

«أأشقى به غرسا»: أي أأشقى بالعلم غرسا، أأشقى وأتعب حين أغرسه.

«وأجنيه ذلّة»: أي وأجني العلم، أجني ثمرة العلم بعد أن كبرت وصلحت وأينعت، أشقى به غرسا، وفي الأخير أكون ذليلا.

«إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما»: أي لو كنت كذلك فالجهل أحزم من العلم وأفضل من العلم.

«وإني لراض عن فتى متعفف»: أي ما أجمل وما أحسن الفتى العفيف المتعفف.

«يروح ويغدو ليس يملك درهما»: أي يروح ويغدو وهو فقير.

«يبيت يراعي النجم من سوء حاله»: أي في الليل يراعي النجم ويفكر في النجوم، من سوء حاله وفقره، وحاجته إلى الطعام والشراب.

«ويصبح طلقا ضاحكا متبسما»: أي يصبح طلقا بشوشا ضاحكا للناس، متبسما، لايظهر عليه أثر الفقر والتعب، والهم والغم لأنه لا يشكوا الى الناس وانما يشكوا إلى الله ربه نعم المولى ونعم النصير.

ولا يريد أن الناس يرحمونه ويتعبون من أجله وإنما يحب أن يظهر أمامهم بمظهر العزة والنعمة لأن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده.

● قال رحمه الله:

١٨. ولا يسـأل المُثْـرين مـا بـأكفِّهم
ولـو مـاتَ جُوعـا عِفَّـةً وتكرُّمـا

١٩. فإن قلت: «زنـدُ العِلـمِ كـابٍ»، فـإنما
كبـا حـين لم نَحـرُسْ حِمـاهُ وأظلَـما

● الشرح:

«ولا يسأل المثرين»: أي الأغنياء أصحاب الثرى، «ما بأكفهم»: أي ما عندهم من المال.

«ولو مات جوعا عفة وتكرما»: أي هذا من أجل عِفَّتِهِ وكرامته.

«فإن قلت: «زند العلم كاب»»: أي حظ العلم قليل، والذين يريدون العلم هم قليل أصلا، والمفروض على الناس، أنهم يكرمون هؤلاء القليل، وأيضا لماذا الناس لا يقبلون على العلم كما يقبلون على الدنيا.

«فإنما كبا حين لم نحرس حماه»: أي: ابتعد الناس عن العلم، عندما لم يحرس طلبة العلم والمنتسبين إلى العلم حماه، «وأظلما»: أي وأظلموا هذا الطريق بتصرفاتهم، والمراد بهم الذين يبتغون بعلمهم الدنيا.

● قال رحمه الله:

٢٠. ولـو أنّ أهـلَ العلـمِ صـانوه صـانهم

ولـــو عظَّمـــوه في النفـــوسِ لعظـــما

٢١. ولكـــن أهـــانوهُ فهـــانوا ودنَّســـوا

مُحَيَّـــاهُ بـــالأطماع حتـــى تجَهَّـــما

● الشرح:

«ولو أنّ أهلَ العلم صانوه صانهم»: أي: ولو أن أهل العلم صانوا العلم وحَمَوْهُ من كل ما يشينه، وظهروا بمظهر طيب، وأخلاق فاضلة، وعزيزة عفيفة، صانهم العلم.

«ولو عظموه في النفوس لعظما»: أي لعظُم عند الناس.

«ولكن أهانوه»: والمراد بهم كما سمعت، علماء الدنيا، أي أهانوا العلم.

«فهانوا»: بسبب إهانتهم للعلم، ومن عظم العلم عظمه الله، ومن حقر العلم وأهان العلم أهانه الله، لأن العلم هو دين الله.

«ودَنَّسُوا محياه بالأطماع حتى تجهما»: أي دنسوا حلاوته وطلاوته وحسنه وبشاشته، حتى صار كالحًا في صورة بشعة عند الناس.

● قال رحمه الله:

٢٢. ومـــا كُـــل بَـــرْقٍ لاحَ لي يســـتفِزني
ولا كـــل مَـــن لاقَيـــتُ أرضـــاه مُـــنعِما

٢٣. ولكن إذا مـا اضـطرني الضُّـــر لم أبـت
أقلـــبُ فكـــري مُنْجِـــدًا ثـــم مُـــتْهِما

● الشرح:

«وما كل برق لاحَ لي يستفزُّني»: أي وما كل برق لاح لي، وما كل باب من أبواب الدنيا يلوح ويظهر لي، يستفزني حتى أذهب وراءه.

«ولا كل من لاقيت أرضاه منعما»: أي وما كل من لاقيت من الناس، أرضاه أن ينعم عليَّ، وهذا أريد أن ينعم عليَّ، وهذا أريد أن يعطيني، وهذا أريد أن ينفق عليَّ، وهذا أريد أن يكون له مِنَّة عليَّ، فالأفضل للإنسان أن يكون هو الذي له المنة على الناس، يُعلِّمهم ويربيهم ابتغاء وجه الله، ولا يريد منهم جزاءًا ولا شكورًا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [يس: ٢١].

«ولكن إذا ما اضطرني الضُّر لم أبت»: أي إذا اضطرني الضر، و(ما) هنا زائدة؛ قال الشاعر:

اسْــمَعْ أَخِــي خُــذْ فَائِـدَةْ بَعْـــدَ إِذَا مَــا زَائِـــدَةْ

أي إذا اضطرني الضر، وجاءني الضر.

«أقلبُ فكــري مُنْجِدًا ثم مُتْهِما»: أي أقلب فكري وأُفكِّر أن أذهب إلى نجد منجدا، أو تهامة متهما.

أي: لكن أصبر على العلم، حتى ييسر الله تعالى، وطالب العلم يدعو الله بتضرع ويكثر من الدعاء حتى يُـيَسِّر الله.

-قيل للإمام أحمد رحمه الله: «ما أفضل أيامك؟»، قال: «عندما يكون الكيس فارغا»، أي: ما يوجد في الكيس شيء، لا ملح ولا دقيق، هذا أفضل الأيام، لأني أدعو الله، وأسأل الله بتضرع وشدة، فيستجيب الله تعالى الدعاء.

• قال رحمه الله:

٢٤. إلى أن أرى مـــا لا أَغَـــصُّ بـــذِكْره

إذا قلـــتُ قـــد أسْـــدى إليَّ وأنعَـــما

• الشرح:

«إلى أن أرى مالا أغص بذكره»: أي سأصبر وأسير على هذا الحال، إلى أن أرى النعمة التي لا أغص بذكرها، أي لا أذكرها وتكون عندي غصة.

«إذا قلت قد أسدى إلي وأنعما»: أي هذا عندي أمر يغصني، إذا قلت: قد أسدى عليَّ فلان، وأنعم عليَّ فلان.

وكما العبرة بما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه من العفة، ومن التعاون كذلك بين أهل الحق، والتعاون بين أهل السنة، وما جاء طالب العلم من المال من غير استشراف نفس يقبله ويحمد الله، وما لا فلا يتبعه نفسه، فبركة العلم هي بالعفة والصيانة فنسأل الله تعالى التوفيق والسداد والله أعلم.

◈◈◈◈◈